مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 53 (شتاء 2003)، ص 138

جوزيف مسعد*

تفكيك الوعي بالمحرقة اليهودية**

- Peter Novick, *The Holocaust in American Life*. New York: Houghton and Mifflin, 1999.
- Norman Finkelstein, *The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering*. New York: Verso, 2000.
- Mark Chmiel, *Elie Wiesel and the Politics of Moral Leadership*. Philadelphia: Temple University Press, 2001.

في السنوات الأخيرة، بعد صمت أكاديمي وسياسي طويل بشأن استحواذ المحرقة اليهودية على الاهتمام العام والإعلامي والوعي الشعبي، ظهر عدد من الكتب التي تحاول التأريخ للعملية التي عرفنا من خلالها المحرقة وكيف تحولت إلى ذاكرة أميركية. ويعتبر كتاب بيتر نوفيك أعلاه، "المحرقة في الحياة الأميركية"، فريداً في نوعه بسبب شموليته وتفحصه الذكي لمعظم النواحي المتصلة بنشوء الوعي بالمحرقة، وثراء معلوماته بالمطلق. أمّا كتاب نورمان فينكلشتاين، "صناعة المحرقة..."، فهو ملحق قصير، لكن مهم وضروري، يسوق انتقادات مهمة لنوفيك، ويقدم مساهمته الخاصة في السجال من خلال تفحص النواحي التي لم يتطرق إليها نوفيك. وأمّا كتاب مارك شميل، "إيلي ويزل وسياسة القيادة الأخلاقية"، فهو "دراسة حالة" توضح سياسة ذاكرة المحرقة من خلال فحص حياة مهندسها الرئيسي، إيلي ويزل، الذي صنع من المحرقة مهنة شخصية ناجحة ومربحة. وهذه الكتب الثلاثة يكمل بعضها بعضاً، وتلقي الضوء على قضية مهمة تُركت طويلاً من دون البحث فيها، وتفتح نقاشاً كان ولوجه محرّماً حتى الآن.

المحرقة كقاسم مشترك

يوضح كتاب نوفيك كيف صار يُنظر إلى المحرقة اليهودية كقضية مركزية في

(*) أستاذ مساعد في السياسة وتاريخ الفكر العربي الحديث، جامعة كولومبيا.

(**) **المصدر**: Joseph Massad, "DeconstructingHolocaust Consciousness,"*Journal of Palestine Studies*, vol. XXXII, no. 1, Autumn 2002, pp. 78-89.

الحياة الأميركية (مقارنة بالحياة في أوروبا، حيث وقعت) بعدما هُمِّشت في أعقاب الحرب العالمية الثانية (ص 6)، وكيف أصبحت، فعلاً، أساساً لإحساس مشترك بالهوية اليهودية في الولايات المتحدة. يصر نوفيك على أن المحرقة، باعتبارها القاسم المشترك الوحيد للهوية اليهودية الأميركية في أواخر القرن العشرين، "أوفت بالحاجة إلى رمز إجماعي... مصمَّم بشكل جيد لمجابهة القلق المجتمعي المتزايد في شأن (الاستمرارية اليهودية) في مواجهة تراجع التدين، وتزايد الاندماج، والارتفاع الحاد في الزيجات المختلطة، وكل ذلك كان ينذر بكارثة ديموغرافية" (ص 7).

لقد نتجت مركزة المحرقة في الحياة الأميركية، وفقاً لنوفيك، من عدد من التطورات، منها بروز الهويات المرتكزة على الإثنية كجزء واضح من مكونات الخطاب العام، وحدوث تغير في الموقف تجاه الضحية من الاحتقار إلى التعاطف والتماثل الوجداني معها. وفي السياق الأميركي، حيث تمكّن الأميركيون من أصل إفريقي، وغيرهم، أخيراً من رواية جزء من قصة اضطهادهم، أصر الخطاب اليهودي على "أننا لا نخوض منافسة للاعتراف [بكوننا ضحايا] فحسب، بل أيضاً منافسة من أجل الأولوية" (ص 9). ويبرز هذا الإصرار على فرادة المحرقة فيما سماه فينكلشتاين "صناعة المحرقة". ويرى نوفيك في ادعاء فرادة المحرقة محاولة للتقليل من كوارث الآخرين باعتبارها عادية قياساً بها.

وعن التخليد اليهودي لذكرى المحرقة، يستغرب نوفيك كيف أنه ذو طابع "(لايهودي)، وكم هو مسيحي. إنني أفكر في طقس اتباع دروب المحرقة المنظمة بشكل تبجيلي في المتاحف الكبرى، وهو ما لا يشبه شيئاً بقدر ما يشبه محطات الصليب على درب الآلام" (ص 11). ويبدي نوفيك قلقه بشأن ما إذا كانت مركزة المحرقة في الحياة الأميركية "مفيدة لليهود" (ص 11)، ويتساءل عما إذا كان هناك "دروس للمحرقة" يجب تعلّمها (ص 12). وهو يشدد على أن المحرقة، من الناحية التربوية، تبدو مصدراً مشكوكاً فيه للدروس التاريخية، "لا بسبب فرادتها المزعومة، وإنما بسبب تطرفها." ويضيف أن "هناك، في رأيي، دروساً بشأن مدى سهولة تحوّلنا إلى مضطهِدين يمكن استخلاصها من سلوك الأميركيين العاديين في الأوقات العادية، أكثر أهمية من سلوك الشرطة السرية النازية في زمن الحرب" (ص 13). ويقول إن درس المحرقة ربما لن يزيد في حساسيتنا تجاه "الاضطهاد"، ذلك بأن "تحويل [المحرقة] إلى العلامة القياسية للاضطهاد والوحشية يأخذنا في الاتجاه المعاكس بالضبط، ويؤدي إلى التقليل من

شأن الجرائم ذات الحجم الأصغر"، ويقود إلى مناظرات "مثيرة للقرف حقاً"، كالتساؤل عما إذا كان الصراع البوسني "يماثل حقاً المحرقة، أم أنه إبادة جماعية ليس إلاّ" (ص 14).

ولعل أقصى ما يشغل نوفيك هو كيف تُوظَّف في المجتمع الأميركي مزاعم فرادة المحرقة وعدم قابليتها للمقارنة من أجل ترويج "التهرب من المسؤولية الأخلاقية والتاريخية. فالإعلانات المتكررة أن كل ما فعلته الولايات المتحدة بالسود، أو بالأميركيين الأصليين، أو بالفيتناميين، أو بغيرهم، يتلاشى أمام المحرقة صحيحة – [لكن] مراوغة. وفي حين أن المواجهة الجدية والمستديمة مع تاريخ مئات السنين من العبودية والاضطهاد للسود ربما تقتضي متطلبات مكلفة لمعالجة أخطاء الماضي، فإن التأمل في المحرقة لا يكلف شيئاً من الناحية العملية: بضع دموع رخيصة فحسب... تؤدي إلى التنصل من تلك المسؤوليات التي تعود إلى الأميركيين بينما هم يواجهون ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم" (ص 15).

لم تكن النظرة إلى المحرقة اليهودية هكذا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وخلال الحرب، سعى اليهود الأميركيون القريبون من الحكومة، أو الذين يعملون في هوليود، لعدم إبراز صورة الضحية اليهودية كي لا يحدثوا ردة فعل معادية للسامية بحجة أن اليهود يجرّون أميركا إلى حرب مع النازيين. ويورد نوفيك كيف أن الأميركيين المتعاطفين مع السامية ابتكروا في عهد هتلر مفهوم "التراث اليهودي – المسيحي" لمواجهة ادعاءات أن حكم هتلر هو هجوم شامل على "الحضارة المسيحية" (ص 28).

ويشكك نوفيك أيضاً في الزعم بأثر رجعي أن اليهود الأميركيين لم يبذلوا ما يكفي لإنقاذ إخوانهم في الدين خلال المحرقة. ويبذل قصارى جهده في القول إن مثل هذه المزاعم يستند إلى افتراضات مغلوط فيها، لأن الناس كانوا يعرفون ما الذي كان يحدث ويعتقدون أن في وسعهم تقديم العون، لكنهم لم يفعلوا ذلك. ويوضح كيف أن اليهود الأميركيين، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الأميركيين، لم يكونوا في أعوام الحرب يعتقدون أن اليهود وحدهم هم الذين كانوا يعانون، على الرغم من أنهم عرفوا بصورة واضحة أن اليهود كانوا، فعلاً، مستهدفين على وجه الخصوص. كما أنهم اعتقدوا أن ليس في وسعهم عمل الكثير للمساعدة باستثناء دعم المجهود الحربي. وكان أداء الصهيونيين في فلسطين أسوأ في هذا الصدد، لأن الأولوية لديهم كانت إنشاء

مستوطنات استعمارية لا إنقاذ اليهود الأوروبيين، حتى عندما عرفوا مقدار الخطر.[1] ومن المهم الإشارة إلى أنه عند تسجيل هذه المقارنة، وما شابهها، فيما يتعلق بردة فعل الصهيونيين في فلسطين، لا يذكر نوفيك أنه لم يحدث قط أن تساءل الصهيونيون عما كان في وسعهم عمله لإنقاذ اليهود الأوروبيين، أو ربما، نظراً إلى تاريخ التعاون بين الحركة الصهيونية والنازيين، ما إذا كان في وسعهم عمل شيء أقل إيذاء لهم.[2]

ومن الخرافات الأكثر إثارة التي يتعامل معها نوفيك، الخرافة التي تعلن أن الشعور الغربي بالذنب إزاء عدم عمل شيء في أثناء المحرقة أدى إلى دعم إنشاء دولة إسرائيل. فهو يتحدى هذه الخرافة على كل مستوى، ويثبت بصورة مقنعة أن المحرقة لم تظهر قط في قرار تلك البلاد التي صوتت لمصلحة قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1947. وباستثناء جنوب إفريقيا، التي دعمت القرار بشكل لا لُبس فيه، ترددت كل الدول الأُخرى حتى اللحظة الأخيرة، وكانت محكومة بسياسة القوى العظمى والاستراتيجيات الاستعمارية الجديدة أكثر من أي إحساس بالذنب تجاه المحرقة (ص 69 – 84).

ويفند نوفيك أيضاً المزاعم التي تفسر الصمت اليهودي بشأن المحرقة بعد الحرب على أنه ناتج من الصدمة أو من الإخفاق الأخلاقي الناجم عن إشاحة النظر عن جريمة رهيبة. ويذكر أن السبب الرئيسي لـ "الصمت" هو أنه في الأعوام التي أعقبت الحرب "جُعلت المحرقة شيئاً من التاريخ – يُنظر إليها ويتم الحديث عنها باعتبارها سمة رهيبة من سمات الفترة التي انتهت بهزيمة ألمانيا النازية" (ص 110). والسبب الآخر كان رعب هيروشيما، الذي يؤكد نوفيك أن تأثيره في الأميركيين كان أقوى كثيراً من تأثير المحرقة "لأسباب منطقية جداً لا دخل لها (بعلم الفظاعات المقارن)" (ص 110). كانت هيروشيما علامة على الأهوال التي ستأتي، و"خلافاً للمحرقة، كان الأميركيون متورطين، كمرتكبين للجريمة وكضحايا محتملين؛ وخلافاً للمحرقة، كان هناك أسباب عملية في تحمّل محنة مواجهة الرعب" (ص 111).

إن ما كسر الصمت العام بشأن المحرقة، وفقاً لنوفيك، ثلاثة تطورات مهمة: إلقاء

(1) أنظر: Tom Segev, *The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust*, trans. HaimWatzman (New York: Hill and Wang, 1993).

(2) عن تعاون الصهيونيين مع النازيين، أنظر:
Lenni Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators: A Reappraisal* (Westport, CT: Lawrence Hill, 1983).

القبض على أدولف أيخمان ومحاكمته خلال 1961 – 1962؛ الجدال بشأن مقالات حنة أرندت سنة 1963 (نشرت لاحقاً في كتاب) التي تغطي المحاكمة؛ باكورة الجدال بشأن عدم إدانة البابا بيوس الثاني عشر للمحرقة، وهو ما أطلقته المسرحية المعادية للبابا سنة 1964 على مسرح برودواي بعنوان "النائب" (The Deputy)، من تأليف رولفهوخهوث (Rolf Hochhuth). إن أهمية هذه الأحداث في إعادة المحرقة إلى الوعي العام كحدث يهودي فريد لها علاقة شديدة بدعاية الحرب الباردة المضادة للسوفيات، إذ استخدمت محاكمة أيخمان لتذكير الغرب إلى أين يمكن أن تقود سياسة الاسترضاء. غير أن الحدث الرئيسي الذي رفع المحرقة في الوعي العام، وفقاً لنوفيك، كان الحرب العربية – الإسرائيلية سنة 1967، التي حولت إسرائيل في حياة اليهود الأميركيين من بلد يهتم كثيرون منهم بمصيره إلى بلد صار بقاؤه يستحوذ على تفكيرهم. وكما ذكر نوفيك "أصبح الطابع المميز لليهودي المخلص هو عمق التزامه أو التزامها بإسرائيل. فعدم أداء الواجب الديني والجهل شبه التام باليهودية، بل حتى الزواج المختلط، أصبحت مسائل مسموحاً بها؛ لكن عدم التحمس للقضية الإسرائيلية (ناهيك عن النقد العلني لها) صار أمراً لا يغتفر" (ص 149). وأصبح ارتباط المحرقة بالتهديد المزعوم بالقضاء على إسرائيل من قبل "أعداء الشعب اليهودي الجدد" أكثر بروزاً بعد حرب 1973، لكنه تضاءل، وفقاً لنوفيك، في أعقاب الانتفاضة الأولى واتفاق أوسلو، إذ تزايد إدراك اليهود الأميركيين أن إسرائيل ليست ضعيفة كما كانوا يعتقدون. غير أنه على الرغم من ارتخاء الصلة بين قابلية تعرُّض إسرائيل للهجوم والمحرقة، استمر تصاعد استحواذ المحرقة على الحياة الأميركية في رأيه لأنها "قدّمت رمزاً بديلاً ذا أخلاقية واضحة وأعظم بشكل لا محدود" مما قدمه الصراع العربي – الإسرائيلي الأكثر إثارة للجدل (ص 169). هنا يظهر تسرّع نوفيك، كما تدل الادعاءات التي أعقبت أيلول/سبتمبر 2000 بأن "محرقة" جديدة تواجه إسرائيل وجيشها الجبار من جانب الشعب الفلسطيني الذي يقاوم محتله؛ وهي ادعاءات أصبحت مدوية في الصحافة الأميركية وعلى لسان المنظمات اليهودية، في سياق انتفاضة الأقصى. من المؤكد، حتى قبل هجمات 11 أيلول/سبتمبر، أنه لم يكن هنالك دلائل على توقف استخدام المحرقة للدفاع عن مصالح دولة إسرائيل وأعمالها الوحشية ضد الفلسطينيين والبلاد العربية المجاورة. لم يكن ذلك تطوراً عفوياً، وإنما كان ناجماً عن سابق تصور وتصميم. وأصبح من الطبيعي، فعلاً، توقع انحناء الضحايا الفلسطينيين للإرهاب

الإسرائيلي احتراماً للمحرقة اليهودية قبل انتقاد إسرائيل، أو حتى بدلاً من ذلك.[3]

ووفقاً لنوفيك، أدى دعم اليهود الأميركيين للصهيونية إلى قبولهم الحجة الصهيونية القائلة إن معاداة السامية ستواجه دائماً اليهود الذين يعيشون في الشتات لأن وضعهم هناك "غير طبيعي" (ص 176). غير أنه لا يدخل في حساباته حقيقة أن الآراء التي تعتبر إسرائيل "محاصرة" هي جزء من الاستراتيجيا الصهيونية والإسرائيلية ذاتها التي تشترط تزايد معاداة السامية لحشد مزيد من الدعم والهجرة إلى إسرائيل بعد نضوب خزان المهاجرين في أواسط خمسينات القرن العشرين. إن ما يقصده نوفيك هو أن الاعتقاد بوجود معاداة السامية هو الذي أدى إلى مزيد من الحديث عن المحرقة (ص 177). غير أن هذه العلاقة السببية مشكوك في صحتها. ويمكننا الافتراض أن الاعتقاد أن "إسرائيل محاصرة"، وأن اليهود السوفيات "مضطهدون"، وأن هناك "لاسامية جديدة"، فضلاً عن الحديث عن المحرقة، هي كلها جزء من الظاهرة نفسها، وليس واحدة منها هي السبب في حدوث الأُخرى. ويستطيع المرء أن يفترض أيضاً وجود علاقة سببية مختلفة باستخدام كثير من القرائن التي يقدمها نوفيك، وهي أن الصهيونية، وإسرائيل، واستخدام أميركا اضطهاد اليهود في الماضي للدفع قدماً بالخطط الصهيونية، هي التي تنظّم استراتيجيا تضخيم السياسات التمييزية السوفياتية الخفيفة نسبياً ضد اليهود (إلى جانب المجموعات القومية والدينية الأُخرى التي واجهت تمييزاً مماثلاً) باعتبارها تشبه المحرقة، وتصوير إسرائيل وكأنها ضحية لـ "معاداة السامية" العربية الجديدة، أو إدانة أي انتقاد لدعم اليهود الأميركيين للصهيونية، أو أي انتقاد لإسرائيل باعتباره "معادياً للسامية".

لقد استمرت الهوية اليهودية بين اليهود الأميركيين من الناحية التاريخية نتيجة عاملين، كما يزعم نوفيك، هما: الموجات المتتالية للمهاجرين من اليهود غير المندمجين، واستمرار معاداة السامية. وعندما تراجع هذان العاملان تراجعت أيضاً عوائق الاندماج. وهنا يورد نوفيك ادعاءه الأكثر أهمية: "ما الذي يمكن أن تفعله المنظمات اليهودية لدعم الهوية اليهودية...؟ وربما تكون التعبئة لمصلحة إسرائيل وفرت للبعض إحساساً بوجود غاية، لكن لم تكد توفر هوية" (ص 186). وفي هذا

(3) عن كيفية رد الفلسطينيين على مثل هذه المطالب، أنظر:
Joseph Massad, "Palestinians and Jewish History: Recognition or Submission,"*Journal of Palestine Studies*, vol. XXX, no. 1, Autumn 2000, pp. 52-67.

السياق بالذات، بدأت المنظمات اليهودية الأميركية المتعددة، والقادة، ومنافذ وسائل الإعلام، الحديث عن أن انحدار الوعي بالمحرقة بين اليهود هو السبب الرئيسي في انحدار اليهودية بينهم.

بحلول سبعينات القرن العشرين، لم تصبح المحرقة ذاكرة يهودية فحسب، بل ذاكرة أميركية أيضاً. أمّا كيف حدث ذلك "فجزء كبير من الإجابة يرجع إلى واقع أن اليهود يؤدون دوراً مهماً ونافذاً في هوليود وصناعة التلفزة وعوالم الصحف والمجلات ونشر الكتب، ولا يقلل شيء من هذا الواقع شكوى المعادين للسامية من ذلك. وكل من يحاول تفسير الاهتمام الكبير الذي لقيته المحرقة في وسائل الإعلام في الأعوام الأخيرة من دون الإشارة إلى هذا الواقع هو ساذج أو مراوغ" (ص 207). وتشكل برامج مثل برنامج Holocaust ("المحرقة") الذي بثته محطة التلفزة NBC في نيسان/أبريل 1978، على عدة حلقات، مثالاً رئيسياً لذلك. ومن خلال مشاهدة 100 مليون أميركي ذلك البرنامج "تلقى الأميركيون معلومات عن المحرقة في تلك الليالي الأربع أكثر مما تلقوا طوال الأعوام الثلاثين السابقة" (ص 209).

ويوجه نوفيك ملاحظاته الأخيرة إلى اليهود الأميركيين مؤكداً أن كبت ذاكرة المحرقة، أو إحياءها، منذ الحرب العالمية الثانية كان، في الدرجة الأولى، انعكاساً للخيارات التي اتخذها القادة اليهود وناخبوهم في أوضاع محددة:

"ثمة مغزى أصاب فيه إميل فاكنهايم بقوله إن نسيان اليهود لضحايا هتلر يمنح هتلر (نصراً بعد موته). لكن سيكون نصر هتلر بعد موته أعظم لو أننا أيدنا ضمناً تعريفه لأنفسنا بأننا منبوذون محتقرون بجعل المحرقة التجربة اليهودية الأساسية" (ص 281).

تجذير النقد

يقدم كتاب فينكلشتاين، "صناعة المحرقة"، نفسَه كتعليق في جانب منه على كتاب نوفيك. وهو ليس كتاباً عن المحرقة النازية، وإنما عن إنشاء "صناعة" للمحرقة بعد المحرقة، يعرّفها بأنها "تمثيل أيديولوجي للمحرقة النازية [التي]... على غرار معظم الأيديولوجيات... لها صلة، وإن كانت مشوبة، بالواقع" (ص 3). وكان "حافز"فينكلشتاين على تأليف كتابه هو كتاب نوفيك، الذي يصفه بأنه "لاذع ومنعش"، لكنه "ليس نقداً جذرياً" (ص 4). وفي حين أن المثقفين الملتزمين عالجوا في

السابق مسائل "السلطة" و"المصالح" و"الأيديولوجيا"، يتبنى نوفيك، وفقاً لفينكلشتاين، "لغة (المخاوف) و(الذاكرة) الرقيقة والمجردة من السياسة." ويرى فينكلشتاين أن القرائن التي يكشف عنها نوفيك لا تقود إلى استنتاجه أن "ذاكرة المحرقة... اعتباطية (في الأغلب)"، وإنما "هي بناء أيديولوجي لمصالح راسخة" (ص 5). ولدى فينكلشتاين سبب شخصي يدعوه إلى تقصي المحرقة: فوالداه من الناجين من المحرقة التي قضت على عائلة كل منهما. والصناعة التي يقول إنها تحيط بالمحرقة تشمل كثيراً من المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فضلاً عن النتاج الثقافي، وخطاب وسائل الإعلام، والمتاحف، والمراسيم، والتشريعات الحكومية التي "تدعم مقولاتها المركزية مصالح سياسية وطبقية مهمة" (ص 3).

يراجع فينكلشتاين بإيجاز تاريخ صناعة المحرقة وكيفية نشأتها. ويشير إلى أن كتابين فقط عن المحرقة كانا متوفرين في أوائل الستينات، كما يشير إلى عدم وجود أنصاب تذكارية وقتئذ في الولايات المتحدة، وإلى أن المنظمات اليهودية الرئيسية كانت تعارض إقامة مثل هذه الأنصاب التذكارية. وهو، في محاولته الإجابة عن السؤال لماذا تغير كل ذلك (ص 13)، يؤيد كثيراً من تفسيرات نوفيك، بما في ذلك أن الصمت الأولي بشأن المحرقة كان ناتجاً من إلحاق تذكّر المحرقة بالشيوعية. ونتيجة الربط المنمّط بين اليهود واليساريين، فإن النخب اليهودية الأميركية "لم تحجم عن التضحية بمواطنيها اليهود على مذبح معاداة الشيوعية. وبتقديم الملفات عن المخربين اليهود المزعومين إلى الوكالات الحكومية، تعاونت اللجنة اليهودية الأميركية (AJC) وعصبة مناهضة التشهير (ADL) بنشاط [مع المكارثية]. وأيدت اللجنة اليهودية الأميركية عقوبة الإعدام الموقعة على الزوجين روزنبرغ [بتهمة التجسس] وبلّغت نشرتها الشهرية Commentary قراءها أنهما [أي الزوجين روزنبرغ] لم يكونا يهوديين حقاً" (ص 15).

إن فينكلشتاين يريد دحض صحة الخرافة القائلة إن النخب اليهودية الأميركية أصبحت مؤيدة لإسرائيل في أثناء حرب حزيران/يونيو 1967 وبعدها، لأنها كانت خائفة من أن إسرائيل كانت عرضة لخطر مميت، وتوقعت حدوث "محرقة ثانية" (ص 24). وفي هذا السياق يتساءل لماذا لم يبدُ اليهود الأميركيون مهتمين هكذا في سنة 1948، عندما كانت قدرة إسرائيل على هزيمة أعدائها غير واضحة تماماً كما كانت في سنة 1967. لقد لحق بإسرائيل 6000 إصابة، فعلاً، في أثناء حرب 1948، أي ما

نسبته "1٪ من سكانها" من دون أن يؤدي ذلك إلى استدرار دعم اليهود الأميركيين، أو إلى إثارة مخاوفهم بشأن حدوث محرقة ثانية (ص 25). وهو هنا يناقض أحد التفسيرات التي يسوقها نوفيك لظهور صناعة المحرقة، أي أن "صورة اليهود كأبطال عسكريين" في أثناء حرب 1967 "عملت على طمس الصورة النمطية للضحايا الضعفاء والسلبيين التي... كبحت في السابق البحث في المحرقة" (نوفيك، ص 149). وبعد الإشارة إلى أنه "من ناحية الشجاعة الخالصة، كانت حرب 1948 أفضل فترات إسرائيل"، وأن "حملة موشيه دايان(الجسورة) و(البارعة) التي استغرقت 100 ساعة في عملية سيناء سنة 1956، استشرفت النصر السريع في حزيران/يونيو 1967." ويتساءل فينكلشتاين: لماذا احتاج اليهود الأميركيون إلى "حرب حزيران/يونيو (لطمس الصورة النمطية)؟" (ص 28)، ويجد أن"المحرقة أدت بالنسبة إلى اليهود الأميركيين الوظيفة نفسها التي تؤديها إسرائيل: (فيشة) قيِّمة أُخرى في لعبة قوى عالية المخاطر والمكاسب. وكان الاهتمام المعلن بذاكرة المحرقة مخططاً له بذكاء مماثل للاهتمام المعلن بمصير دولة إسرائيل.... لم يكن ضعف إسرائيل المزعوم وعزلتها، ولا الخوف من حدوث (محرقة ثانية)، هي التي قادت النخب اليهودية إلى تسريع صناعة المحرقة بعد حزيران/يونيو 1967، وإنما القوة المثبتة والتحالف الاستراتيجي مع الولايات المتحدة" (ص 30 – 31).

أمّا بالنسبة إلى سياسة التركيز على الهوية الإثنية، التي يعزوها نوفيك إلى الأوضاع المعوّقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تتعرض لها الأقليات، فيجادل فينكلشتاين أن اليهود هم وحدهم، بين الأقليات، غير المتضررين في المجتمع الأميركي. بل إن سياسة الهوية والمحرقة ترسختا بين اليهود الأميركيين لا بسبب حالتهم كضحايا، وإنما لأنهم ليسوا ضحايا" (ص 32).

ويعرض فينكلشتاين كيف أن منظمات صناعة المحرقة، مثل مؤتمر المطالب المادية اليهودية ضد ألمانيا والمؤتمر اليهودي العالمي، تهتم بالمكسب المالي الذي يعود عليها وعلى عامليها أكثر من اهتمامها بالناجين من المحرقة، الذين يتلقون في نهاية المطاف القليل جداً من المبالغ المالية الضخمة التي تستطيع هذه المنظمات جمعها. "وهكذا فإن ويزل، في مقابل أجره القياسي البالغ 25,000 دولار (فضلاً عن سيارة الليموزين مع سائقها)، يحاضر في أن (سر حقيقة) [معسكر] أوشفيتز(يكمن في الصمت)" (ص 45). ويكشف عرض فينكلشتاين بشأن تعامل صناعة المحرقة مع

المصـارف السـويسـرية عن الكثير في هذا الصـدد، ولا سـيما عند مقارنته بالصـمت المطبق فيما يتعلق بالمصارف الأميركية، التي يصر فينكلشتاين على أنها تحتوي على مئات ملايين الدولارات من الحسابات اليهودية النائمة منذ أعوام الحرب. "ومما لا يثير الدهشـة أن صـناعة المحرقة لم تطلق حملة للتحقيق مع المصـارف الأميركية. فتدقيق حسابات مصارفنا بمستوى التدقيق السويسري لن يكلف دافعي الضرائب الأميركيين ملايين الدولارات، وإنما مليارات الدولارات. وعندما يكتمل هذا التدقيق سـنجد أن اليهود الأميركيين سيسعون لطلب اللجوء إلى ميونيخ. فللشجاعة حدودها" (ص 117).

إن صـناعة المحرقة صـامتة أيضـاً بشـأن الحسـابات اليهودية الكامنة منذ زمن الحرب في المصـارف الإسـرائيلية التي رفض مديروها إصـدار لائحة بالحسـابات و"قاوموا" إنشـاء لجان للتحقيق، خلافاً للدول الأوروبية. و"لإيضـاح عدم إمكان اسـتخلاص (تكافؤ أخلاقي) بين المصـارف في إسـرائيل والمصـارف في سـويسـرا، اسـتشـهدت صـحيفة (نيويورك تايمز) بمشـرّع إسـرائيلي سـابق: (هنا يوجد إهمال في أحسن الأحوال، لكن في سويسرا هنالك جريمة)" (ص 118 – 119).

وفي حين يقدم كتاب فينكلشتاين بيانات وتفسيرات حاسمة بشأن نشوء صناعة المحرقة، إلاّ إن خاتمته محيّرة:

"لقد اسـتغل اليهود الأميركيون المنظَّمون المحرقة النازية لحرف الانتقاد الموجه إلى إسـرائيل وسـياسـاتها التي لا يمكن الدفاع عنها أخلاقياً. وقد وضـع أتباع هذه السـياسـات إسـرائيل واليهود الأميركيين في موقعين متطابقين بنيوياً؛ ويتدلى مصـير كليهما من خيط رفيع يصـل إلى النخب الأميركية الحاكمة. وقد ينقطع الخيط إذا ما قررت هذه النخب أن إسرائيل أصبحت عبئاً، أو أنه يمكن التخلي عن اليهود الأميركيين. لا شـك في أن هذا مجرد تخمين، ربما تخمين مبالغ فيه أكثر مما يجب، وربما لا" (ص 149).

يمكن النظر إلى هذا القول باعتباره غير متطابق مع بقية تحليل فينكلشـتاين، بل إنه يقترب من الفهم الصـهيوني بأن اليهود لن يكونوا آمنين في الشـتات مهما تبلغ قوتهم، إذ يمكن أن يضـحي بهم الأغيار الأقوياء عندما يناسـب ذلك مصـالحهم. ومثل هذه السـيناريوهات الصـهيونية يغفل عن أن اليهود الأميركيين في معظمهم مندمجون جداً مع "العرق الأبيض" بحيث أنهم لم يعودوا يهوداً، من الناحية الدينية أو الثقافية، إلاّ بالاسم. لقد أصبح اليهود الأميركيون بِيضاً ومتنصرين في جانب كبير من حياتهم

الثقافية.[4] وارتباطاتهم بالنخب الأميركية المسيحية البيضاء، التي تشكل نخبهم جزءاً منها، ليست معلقة بـــ "خيط" وإنما بملايين الحبال المتينة، بحيث أن النخبة بينهم لا يمكن تمييزها من النخب الأميركية المسيحية البيضاء. وإذا ما تخلت النخب الأميركية عن إسرائيل، وهو أمر بعيد الاحتمال، ستتخلى النخب اليهودية عنها أيضاً، مثلما تخلى اليهود الأميركيون في الســـابق عن الزوجين روزنبرغ، وعن اليهود الأميركيين الشيوعيين، ودافعوا عن أميركيتهم على حساب يهوديتهم.

إيلي ويزل كدراسة حالة

إذا كان كتاب فينكلشتاين ملحقاً ضرورياً لكتاب نوفيك، فإن كتاب مارك شْميل، "إيلي ويزل وسياسة القيادة الأخلاقية"، يوفر دراسة حالة غنية بالمعلومات توضح استنتاجات الكتابين. يراجع شْميل المهنة السياسية لويزل، وهو ممن نجوا من المحرقة اليهودية وعاش في فرنســـا بعد الحرب وعمل فترة وجيزة مترجماً لمنظمة الإرغون الصهيونية الإرهابية، ومراسلاً لصحيفة يهودية في باريس في وقت لاحق (ص 79 – 80). وقد نشر ويزل كتاباً في الخمسينات عن المحرقة اليهودية، وانتقل فيما بعد إلى الولايات المتحدة حيث بدأ يكتب ويتحدث عن المحرقة بصورة أوسع وبلهجة انتقادية (ص 32 – 33). وانتقد بشدة عدم تحرك الولايات المتحدة لمصلحة ضحايا معسكرات الاعتقال، فضلاً عن انتقاده اليهود الأميركيين لمتابعتهم الحياة كالمعتاد بينما كانت تجري إبادة اليهود الأوروبيين.

ارتفعت مكانة ويزل في أعقاب حرب 1967 مع دخول المســـائل المتعلقة بذاكرة المحرقة وارتباطاتها بالسياسة الإسرائيلية في صلب اهتمامات التيار السائد. ويرسم شميل تحوّل ويزل من مثقف مثير للمشاعر ينتقد العالم بشدة على صمته، إلى مكانته الحالية المكرســـة كشـــخص شـــهير ينال جوائز أميركية ودولية، ويمضـــي الوقت مع الرؤساء الأميركيين، ويدعونه إلى ترؤس لجان حكومية (مثل لجنة المحرقة).

يعرض شـــميل كيف أن الفهم الأميركي لمناصـــرة ويزل للضـــحايا التي اعتُبرت "عديمة الجدوى" في الأربعينات تغير بصـــورة ملموســـة في الســـبعينات، إذ أصـــبح الضحايا أنفسهم "جديرين" بإحياء ذكراهم. ويعمد شميل، في النهاية، إلى اختبار مَثَل

(4) أنظر: Karen Brodkin, *How Jews became White Folks and what that Says about Race in America* (New Brunswick: Rutgers University Press, 1998).

ويزل القائل إن "الحياد يساعد المضطهِد لا الضحية إطلاقاً، والصمت يشجع المعذِّب لا المعذَّب إطلاقاً"، فيطبقه على ويزل نفسه (ص 51). ويتألف دليل شميل من عدة حالات اختبار، هي حالة اليهود في الاتحاد السوفياتي وباراغواي وكمبوديا وأميركا الوسطى وتيمور الشرقية وغيرها، والحالة الإيضاحية للفلسطينيين. ويخلص، كما سنوضح أدناه، إلى أن ويزل تحدث في معظم الأحيان عن الضحايا الذين تعتبرهم الولايات المتحدة "جديرين" بالتعاطف، وبقي محايداً وصامتاً في الحالات الأُخرى.

تجاهل ويزل الانتقاد أنه ركّز على اليهود فقط، وأنه عُني بالدفاع عن قضية اليهود الذين هلكوا في المحرقة والناجين منها، ولا يكاد يذكر ضحايا هتلر الآخرين في معسكرات الموت. وكانت أول قضية تبناها، غير المحرقة، هي قضية اليهود السوفيات. وعلى الرغم من أن ويزل أصر دائماً على أن اهتمامه بقضية المضطهدين إنساني وأخلاقي وليس سياسياً، فإن من الصعب اعتبار "محنة" اليهود السوفيات مشروعاً محايداً من الناحية السياسية في الولايات المتحدة في الستينات والسبعينات. ووفقاً لشميل بالغت آلة الدعاية الأميركية، التي كان ويزل جزءاً منها، في وصف أوضاع اليهود السوفيات السيئة، الذين عانوا جرّاء بعض السياسات التمييزية في الاتحاد السوفياتي بعد ستالين، والتي أثرت في ممارساتهم الثقافية والدينية، وكذلك في أعمالهم وتعليمهم (لم يضف شْميل أن التمييز ضد اليهود السوفيات يمكن مقارنته بالتمييز الذي عانى جرّاءه اليهود الأميركيون منذ العشرينات حتى أوائل الخمسينات). وعلى الرغم من أن ويزل رفض المقارنة الصريحة بين اليهود السوفيات ويهود المحرقة، فقد أصر على أنه "يتعذر من وجهة النظر الذاتية والعاطفية تجنب الانطباع بأن ثمة شيئاً مشتركاً بين المجتمعين – إحساس بالعزلة التامة"(ص 41). إن القيود على العبادة اليهودية في الاتحاد السوفياتي، في تلك الفترة، لم تكن في الواقع أشد من القيود المفروضة على العبادة المسيحية والإسلامية. وهكذا فإن الحملة التي أيدها ويزل من أجل اليهود السوفيات كانت تدعو إلى معاملة تفضيلية لهم فيما يتعلق بالحصول على تأشيرات خروج لم تكن متوفرة للمواطنين السوفيات الآخرين. ومع أن شميل لا يذكر هذه النقاط، فإن نقده لويزل قوي بما فيه الكفاية: "في الحقبة التي تلت حرب فيتنام، خدم مثل هذا الاهتمام بضحايا أعدائنا الرسميين غاياتنا الدعائية... لقد كان اليهود السوفيات آمنين سياسياً، والخطاب الأميركي كان في الإمكان إغداقه على نبالة قضيتهم. وسواء عن قصد أو عن غير قصد، استُدرج ويزل إلى العمليات السياسية

والمسائل الأيديولوجية والخيارات الأخلاقية بينما كان ينشط من أجل (يهود الصمت)" (ص 47 – 48).

لم يشمل اهتمام ويزل الأخلاقي ضحايا الاضطهاد من غير اليهود، مثلاً سكان الآشي (Aché) الأصليين في باراغواي، الذين كان ديكتاتور باراغواي الجنرال ألفريدو ستروسنر، من حلفاء الولايات المتحدة، يقوم بإبادتهم (ص 55). غير أن صمته تجاه ملايين الضحايا نتيجة الإرهاب الأميركي في فيتنام والهند الصينية كان يصم الآذان. وعندما تحدث أخيراً سنة 1979، كان مهتماً بـ "مهاجري القوارب [الفيتناميين]". فمحنتهم بالسعي للهجرة إلى الغرب ذكّرته بالمحرقة، وشعر بالحزن لدى رؤيته "الصمت واللامبالاة تجاه مصير (مهاجري القوارب)" (ص 58). ولم يرتدع ويزل عن إعلان مثل هذه الادعاءات الكاذبة، على الرغم من أن وسائل الإعلام الأميركية لم تكن قط غير مكترثة لمحنة "مهاجري القوارب" أو صامتة بشأنها. أمّا فيما يتعلق بضحايا الإبادة الجماعية لنظام بول بوت، فقد بدا ويزل مهتماً بصورة خاصة بوجوب عدم مقارنة وضعهم بالمحرقة اليهودية: "ليس هناك مجال للمقارنة... والذين يتحدثون عن (أوشفيتز في آسيا) و(المحرقة الكمبودية) لا يعرفون ما الذي يتحدثون عنه" (ص 63).

بصرف النظر عن إصرار ويزل على أن اهتمامه بضحايا إرهاب الدولة "أخلاقي" و"إنساني" وأنه ليس شخصاً "سياسياً"، يبرهن شْميل بصورة مقنعة أن قضيتي "معاناة مهاجري القوارب الفيتناميين وضحايا الخمير الحمر كانتا قد أصبحتا قضيتين مؤطرتين أيديولوجياً من قضايا حقوق الإنسان في الولايات المتحدة." ويضيف شْميل أن "هناك كثيراً من الأمثلة، في أثناء الفترة نفسها، للاجئين لم يحظوا باهتمام كبير أو بأي اهتمام في وسائل الإعلام الأميركية أو من قبل الحكومة الأميركية، مثل 250,000 لاجئ تسبب بلجوئهم غزو إسرائيل للجنوب اللبناني سنة 1978، أو 15,000 هاييتي من (مهاجري القوارب)، أو 140,000 لاجئ من الفيليبين"، إلى جانب 200,000 تيموري شرقي قتلهم "حليف الولايات المتحدة الموثوق به" الذي "كان يتلقى [منها] مساعدة عسكرية وأيديولوجية مهمة في أثناء قيامه بـ [هذه] الهجمات التي تقارب الإبادة الجماعية" (ص 65). وقد تجلت خدمة ويزل لسياسة الحرب الباردة الأميركية في مناصرته هنود المسكيتو في نيكاراغوا، في فترة حكم ريغن، الذين تبنى

محنتهم (اضطرتهم حكومة معارضة للسياسات الأميركية إلى النزوح عن بيوتهم عند جبهة القتال)، بينما تجاهل هجمات الإبادة الجماعية على الهنود في غواتيمالا المجاورة، وهي حليف موثوق به للولايات المتحدة، أو المجازر المستمرة في إلسلفادور، وهي حليف آخر للولايات المتحدة. ويخلص شْميل إلى أن "حماسة ويزل للولايات المتحدة ازدادت اتقاداً في العقود الأخيرة، وليس من المفاجئ أن يحدث ذلك مع علوّ شأنه في بلده المتبنى بصورة كبيرة. لكن إحساسه الملهم بالوطنية تجاه الولايات المتحدة ينافسه عشقه الراسخ لدولة إسرائيل" (ص 78).

يمكن إيجاز التزام ويزل تجاه إسرائيل بقوله: "بصفتي يهودياً أرى دوري... كمدافع عن إسرائيل: أدافع حتى عن أخطائها. أجل، إنني أشعر كيهودي مقيم خارج إسرائيل بأن عليّ التماثل الوجداني مع كل ما تفعله إسرائيل – حتى مع أخطائها. وذلك أقل ما على يهود الشتات فعله من أجل إسرائيل: إمّا التحدث في مدحها وإمّا التزام الصمت" (ص 87). وبينما صادرت الصهيونية مأساة المحرقة لتبرير اعتداءاتها، كان على ويزل إضفاء الشرعية على ذلك الارتباط في كثير من خطابه بشأن الاستيطان الاستعماري. لقد شعر بالزهو لغزو إسرائيل المظفر لجيرانها سنة 1967. وإذا كانت المحرقة اليهودية لغزاً للشر المطلق، فقد كان انتصار إسرائيل لغزاً للخير المطلق (ص 82). ولم يكن الاحتلال الإسرائيلي منزَّهاً عن المقارنة بـ "الأوضاع السائدة في أوروبا المحتلة من قبل الألمان" فحسب، بل إن الاحتلال الإسرائيلي كما صرح كان "الأكثر إنسانية والأقل قمعاً ما أمكن" (ص 84).

وبينما هاجم ويزل صمت العالم تجاه المحرقة اليهودية طوال حياته المهنية، ظل يطلب من اليهود والأغيار أن يبقوا صامتين بشأن القمع الإسرائيلي للفلسطينيين: "إن الأمم التي بقيت صامتة في أثناء المحرقة عليها التزام الصمت الآن أيضاً [لأنها] فقدت كل حقوقها في الحكم على إسرائيل الآن" (ص 85). أمّا بالنسبة إلى اليهود الذين انتقدوا إسرائيل، فقد حثهم على الامتناع من الحكم على ذلك البلد، لأن أقصى ما هو مسموح لهم عمله هو "الشهادة" لا "الحكم" (ص 100). وعندما قرر أخيراً مخاطبة الفلسطينيين، لم يعترف بالمجازر التي ارتكبت ضدهم وبطردهم سنة 1948 من قبل اليهود الإسرائيليين، بمن فيهم آلاف من الناجين من المحرقة، وإنما شدد على أن هؤلاء اليهود قدموا إلى فلسطين "لا للحلول مكانكم" وإنما "ليحيوا ثانية حلماً قديماً." وفي قول ينطبق بشكل ساخر على ويزل نفسه وعلى كل الذين يبررون جرائمهم باللجوء إلى

المحرقة، أعلن أن معاناة الفلسطينيين "يبدو أنها تبرر كل شيء، لكن لا بالنسبة إليّ. المعاناة لا تمنح حقوقاً ولا امتيازات، ويتوقف كل شيء على كيفية استخدامها. إذا استخدمتها لزيادة عذابات الآخرين فإنك تحط من شأنها وتخونها" (ص 94). ويختم شْميل بأن ويزل لم يواصل إصراره على عدم قابلية مقارنة المحرقة فحسب، بل أيضاً على مقدار "إنسانية" ردة الفعل اليهودية عليها، خلافاً للفلسطينيين الذين كانت ردة فعلهم تجاه معاناتهم اللجوء إلى "الإرهاب" (ص 95). وعندما أثار الغزو الإسرائيلي للبنان سنة 1982 وقتل آلاف المدنيين انتقادات معتدلة في الصحافة الأميركية، لم يكتف ويزل بإدانة مثل هذه الانتقادات، وإنما صرح أن دور اليهود في كل دول العالم، في مثل هذه الأوقات الصعبة، هو تقديم "الدعم والحب غير المشروطين لدولة إسرائيل... بصرف النظر عن معاناة اللبنانيين والفلسطينيين" (ص 102).

ويشرح شْميل كيف أن ويزل، بما ينسجم مع مواقفه، عمل مع إدارتي كارتر وريغن، ممتدحاً جهودهما لتخليد ذكرى ضحايا المحرقة من دون أن ينتقدهما بشأن الدعم الأميركي للمجازر التي كانت ترتكب في كل أنحاء العالم (ص 124). ويختم دراسته بالتشديد على أن ويزل "لم يكن معارضاً شديداً للقوة الأميركية بقدر ما كان حليفاً متفانياً ومستفيداً منها بسبب ذلك... فنادراً ما انتقد ويزل القوة الأميركية، باستثناء عدم قيام الولايات المتحدة بتقديم يد العون للضحايا [لكن ليس دورها في جعلهم ضحايا]... وفي الأعوام الأخيرة الفائتة، يمكن أن يرى المرء ويزل كأنه (نبي جدير بالاحترام) كرمته الدولة لاهتمامه الكبير بالضحايا الجديرين بالاحترام" (ص 164 – 165).

لقد قدم كل من نوفيك وفينكلشتاين وشْميل مساهمات مهمة وحاسمة في موضوع لم يثر بشأنه نقاش كبير، وهو بروز الوعي بالمحرقة في الولايات المتحدة. والكتب الثلاثة ضرورية لكل من يريد فهم كيفية تعاون الصهيونية العالمية وإسرائيل والولايات المتحدة على إنتاج نظام أيديولوجي مفصل للدفاع عن الجرائم الإسرائيلية، وهي جرائم تدعمها حكومة الولايات المتحدة وتمولها وتقدم لها الموارد. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf